أوراق إستراتيجية

By Michael Rubin
February, 2006
Institute
January 25, 2006

American Enterprise

إيران جادة في ما تقول

إنّ هذا الموضوع مُستمَد من مواضيع أخيرة للباحث المقيم في AEI ورئيس تحرير Middle East Quarterly، Michael Rubin والتي ظهرت في Tyzden (Bratislava) و The Wall Street Journal، وفي كتابه الذي أطلقه مؤخّراً:
Eternal Iran: Continuity And Chaos والذي شارك في تأليفه Patrick Clawson.
(إنّ الديبلوماسيين الأميركيين والأوروبيين بحاجة لأن يأخذوا كلام الرئيس محمود أحمدي نجاد بخصوص البرامج النوويّة وتدمير إسرائيل على محمل الجد. لقد أثبتت طهران أنّها شريك ديبلوماسي منافق، وإنّ التعاطي معها أعطى عكس النتائج المرجوّة، وبدلاً من الجهود الديبلوماسيّة المستمرّة والفاشلة، فإنّ على قادة العالم أن يعملوا سوياً لمساعدة الشعب الإيراني على خلق حكومة ممثلة بشكل صحيح).
في 2 شباط، 2006 ستقوم الوكالة الدوليّة للطاقة الذريّة بعقد إجتماع في فيينا لمناقشة الأزمة النوويّة في إيران مع الإحتمال الكامل بإحالة إيران الى مجلس الأمن الدولي لخرقها إتفاق حماية معاهدة الحد من الإنتشار النووي. إنّ هكذا إحالة سوف تكون علامة تحوُّل لقصّة العقد البطوليّة. لقد فشل التعاطي الأوروبي مع إيران وعزمت الولايات المتّحدة وحلفائها الأوروبيين على التنديد بقرار الحكومة الإيرانيّة مواصلة تخصيب اليورانيوم، وبشكل مغاير للطرق الديبلوماسيّة السابقة والمسدود مع طهران، لم تُظهر واشنطن ولا حلفائها الأوروبيين الإستعداد للقيام بتنازلات أكثر. وفي 23 كانون الثاني، قالت وزيرة الخارجيّة الأميركيّة كوندوليزا رايس " إني لا أرى مجالاً كبيراً للمناقشة بأي شكل من الأشكال مع إيران ". وفي 13 كانون الثاني 2003، وفي مؤتمر صحفي مع رئيسة الوزراء الألمانيّة Angela Merkel، ندد الرئيس جورج دبليو بوش بإيران، " إنّ إيران، متسلّحة بسلاح نووي، تشكّل تهديداً مميتاً لأمن العالم"، قال السيد بوش. " لن يتم تخويفنا "، أضافت السيدة Merkel. ورغم ذلك، فقد سبق وكان هناك كارثة واحدة في الأزمة الديبلوماسيّة: سياسة الإتحاد الأوروبي بالتعاطي (مع المسألة النوويّة الإيرانيّة).
وبينما كان الديبلوماسيون الإيرانيون يجتمعون مع نظرائهم البريطانيين، الفرنسيين، والألمان في فيينا وجنيف، كدح التقنيون الإيرانيون في تهيئة قدرة إيران على تخصيب اليورانيوم، وناقش المسؤولون الأوروبيون نموذج الصين لإيران، حيث أمكنهم إستخدام التجارة لتحفيز التحرر السياسي. وقد تضاعفت تجارة الإتحاد الأوروبي ومع الجمهورية الإسلاميّة الى ثلاثة أضعاف تقريباً ما بين عامَي 2000 و 2005، ولكن بدلاً من الإعتدال، فإنّ المسؤولين الإيرانيين قاموا بإستخدام العملة الصعبة لأحل تعزيز قوّتهم العسكريّة، فبنوا مفاعلات نوويّة سريّة وسدوا الطريق أمام عمليات التفتيش وفشلوا بتفسير آثار اليورانيوم على أجهزة الطرد الإيرانيّة، كما رفضوا أن يرووا بالتفصيل عن ماهيّة المساعدة التي تلقّتها طهران من العالم النووي الباكستاني في A.Q. Khan .
ولا يزال الديبلوماسيون والحمائم يقدّمون الأمل. فبعد المحادثة الهاتفيّة في 12 كانون الثاني مع علي لاريجاني رئيس المفاوضين الإيرانيين (بالموضوع النووي)، أكّد كوفي أنان للمراسلين أنّ طهران كانت مهتمّة " بمفاوضات جادة وبنّاءة

". وبينما كان السيد بوش يجتمع مع السيدة ميركل، أخبر وزير الخارجيّة البريطاني جاك سترو محطّة الـ BBC أنّه ليس هناك من عمل عسكري " في الأجندة "، وأكّد أنّ الأزمة " يمكن حلّها فقط بالوسائل الديبلوماسيّة ".
إلاّ أنّه وبينما قد توافق واشنطن وحلفائها الأوروبيين على إحالة إيران الى مجلس الأمن، فإنّ الديبلوماسيّة التقليديّة لن تكون فاعلة لسبب بسيط: إنّ سعي إيران للأسلحة النوويّة لا علاقة له بالولايات المتّحدة أو أوروبا. إنّ الأزمة مع طهران هي أزمة إيديولوجيّة وليست سياسيّة.

الإيديولوجيّة الخطيرة

إنّ تدمير إسرائيل هو أحد دعامات إيديولوجيّة الجمهورية الإسلاميّة إذ سرعان ما صرّح آية الله الخميني بعد تزعّمه الثورة الإسلاميّة " إنّ على كل مسلم تجهيز نفسه للمعركة ضد إسرائيل ". وقد يكون نداء أحمدي نجاد " لمحو إسرائيل عن الخريطة " قد صدم أوروبا، إلاّ أنّ تصريحاته تؤشّر فقط الى تغيّر نوع الخطاب وليس وليس الى تغيّر المادة الإيديولوجيّة.
إنّ أحمدي نجاد ليس مشوّشاً، إنّه يعلم تماماً ماذا يفعل. فلكي يكون المرء رئيساً لبلديّة طهران، وهي مدينة من 12 مليون نسمة، فإنّ ذلك يتطلّب كفاءة وحنكة، فكيف إذا أصبح رئيساً؟ وعندما يهدد أحمدي نجاد بتدمير إسرائيل، فإنّه جاد بشكل خطير. وعندما يتعلّق الأمر بإسرائيل، فليس هناك من فرق بين المتشددين والإصلاحيين، إذ عندما كرّم كوفي أنان محمّد خاتمي لأجل فكرته حول " حوار الحضارات "، كانت إرشادات الرئيس الإصلاحي للشعب الإيراني أقل من ناحية السمو الفكري. " علينا تحريك العالم الإسلامي للقيام بمواجهة حادّة ضد النظام الصهيوني "، قال خاتمي للتلفزيون الإيراني في 14 تشرين الأوّل عام 2000، " إذا كنا ملتزمين بالقرآن، فعلينا جميعاً جميعاً أن نتحرّك للقتل ".
ولم تكن تعليقات خاتمي إستثناء، إذ أنّ رئيس تشخيص مصلحة النظام والرئيس السابق علي أكبر هاشمي، رفسنجاني، والذي غالباً ما يوصف من قِبَل المسؤولين الغربيين كبراغماتي، فإنّه وفي 14كانون الأوّل 2001، إعتلى المنصّة في جامعة طهران لإلقاء خطبة الجمعة، وهو التصريح الرسمي الأسبوعي للحكومة الإيرانيّة، وصرّح قائلاً ما أُعتُبرَ كمنبّه، " إذا ما حصل في يوم من الأيام وتسلّح العالم الإسلامي أيضاً بأسلحة كتلك التي تمتلكها إسرائيل الآن، فإنّ الإستراتيجيّة الإمبراليّة ستتجمّد، لأنّ مجرّد إستعمال قنبلة نوويّة واحدة على إسرائيل سيدمّر كل شيء... ومن المنطقي التأمّل بإحتمال كهذا ". وقد برر المحللون الأميركيون والأوروبيون ملاحظات رفسنجاني وعرضوا الى أنّه رجع بذلك الى الدفاع عن النفس فقط. وبشكل معبّر، فهم عدد من البرلمانيين الإيرانيين ما عناه رئيس مصلحة تشخيص النظام بما قاله: " التهديد بالإستخدام العدواني للسلاح النووي ".
وبعد سنتين، عرض المسؤولون صاروخ شهاب-3 خلال عرض عسكري إكتسى بداية تقول " يجب أن تُستأصل إسرائيل وتُمحى من التاريخ ".
إنّ الإنشقاق الحزبي داخل النخبة الإيرانيّة الحاكمة ليس سبباً للإنتقاص من الآراء السياسيّة خاصّة أولئك الذين يلقون تغطية إعلاميّة شاملة داخل الجمهوريّة الإسلاميّة. إنّ الإعلام الإيراني هو إعلام دولة، وإنّ برامجها الإذاعيّة والتلفزيونيّة تأخذ إشارة الموافقة من الحكومة بكاملها، كما أنّ المسؤولين الإيرانيين دقيقون ومحنكون ببعث الرسائل.
وفي تشرين أوّل 2005، كان مؤتمر عالم بدون صهيونيّة والأعلام التي تنادي بتدمير إسرائيل باللغة الإنكليزيّة وليس بالفارسيّة. ولم يكن الجمهور المقصود هم جماهير طهران، أصفهان وشيراز، وإنّما كان المقصود جماهير واشنطن، القدس وبروكسل.
لا يجب أن يخطئ المسؤولون الغربيون فهم إنكار أحمدي نجاد للهولوكوست، لأنّ هناك وببساطة، مسؤولون إيرانيون آخرون أكثر تهذيباً. وفي 14 كانون الأوّل 2005، وبعد 4 سنوات من ذلك اليوم الذي هدد فيه رفسنجاني بضربة نوويّة أولى ضد إسرائيل، ألقى أحمدي نجاد خطاباً مُتلفزاً، مسى فيه جريمة النازيّة لـ 6 مليون يهودي أنّها مجرّد إختلاق، " لقد خلقوا أسطورة بإسم الهولوكوست وإعتبروا أنّها فوق الله، الدين والأنبياء... وإذا ما قام أحد بإنكار أسطورة مذبحة اليهود، فقد يمزّق كل الناطقين الصهاينة والحكومات التابعة لهم حناجرهم بالصراخ ضد ذلك الشخص ". وفي الأيام الأخيرة، أكّدت الحكومة الإيرانيّة قصدها وذلك بإعلان عزمها على رعاية مؤتمر إنكار الهولوكوست.
إنّ أحمدي نجاد لا يمثّل الشعب الإيراني ككل، فأغلب الإيرانيون متسامحون، ويفتخر الإيرانيون بكونهم كوزموبوليتانيين (متحررين من الأحقاد القوميّة أو المحليّة). وإنّ أغلب الإيرانيين يتكلّمون عدّة لغات (مزيج من اللغات)، إذ أنّ إيران نفسها هي إمبراطوريّة أكثر منها دولة. وإنّ المجتمع اليهودي لديه جذوراً عميقة في إيران، إذ لا يزال اليهود الإيرانيون يقومون بالحج الى همدان، وهي مدينة في غرب طهران، لزيارة ضريحَي إستير وموردخاي، وهي

الآثار التي تقع في إقليم خوزستان قريباً من الحدود العراقيّة. وحتّى اليوم، تتباهي إيران بأنّها صاحبة ثاني أكبر مجتمع يهودي في الشرق الأوسط بعد إسرائيل.

إنّ المعاداة غير العقلانيّة للساميّة لها جذور عميقة بين رجال الدين في إيران. وإنّ الممارسة النازيّة التي كانت تجبر اليهود على إرتداء نجمة صفراء لها أصول في إيران، وذلك عندما أجبر الخليفة العباسي في القرن التاسع معارضيه اليهود على إرتداء رقعاً صفراء. وقد أحيا الحكام التالين تلك الممارسة لفترات قصيرة من الزمن. وإعتبر رجال الدين الشيعة، ولوقت طويل، أنّ أي طعام يمسّه اليهود يُعتبر نجساً. وبينما تجدّر التشهير الدموي في المجتمع الإيراني، وذلك بعد وصول السفراء الأوروبيين الى إيران في القرن السادس عشر، كان المجتمع الإيراني يكافح بطريقة عصريّة التنامي العنيف لمعاداة الساميّة.

لقد مسحت المذابح المجتمع اليهودي في بعض القرى والبلدات في أذربيجان الإيرانيّة في أواسط القرن التاسع عشر، كما أنّ مذابح خطيرة حصلت في مشهد، المدينة الشيعيّة المقدّسة في شمال شرق إيران حيث وُلِدَ ونشأ القائد الأعلى الحالي للجمهوريّة الإسلاميّة علي خامنئي. وبالرغم أنّ لا إكراه في الإسلام (في الدين)، فقد قام رجال الدين الشيعة أيضاً في مشهد على تحويل بقايا اليهود الى الإسلام تحت تأثير التهديد بالموت. وقد جعل آية الله الخميني من المؤامرات المعادية للساميّة موضوعاً مألوفاً في خطاباته.

أمّا أنّ الإيرانيين يتقبّلون التنوّع الثقافي والديني، فإنّ ذلك لا علاقة له بالموضوع، حيث أنّ رجال الدين والحرس الثوري الإسلامي- المنقذون الإيديولوجيون- يسيطرون على السلطة. إنّ القوّة الخانقة (لحريّة العمل والتعبير) للإيديولوجيّة في الدولة الإيرانيّة، هي ما يجعل إيران النوويّة خطرة للغاية. وقد قام الحرس الثوري بتعزيز سلطته في السنوات الأخيرة من إدارة خاتمي، عندما تدبّر أمر خرق عقود تسمح لشركات أوروبيّة وتركيّة بتشغيل شبكات الهاتف الخليوي ومطار طهران الجديد. إنّ هذا الرهاب من الأجانب

(Xenophobic) هو الذي يسيطر على كل من الصناعة النوويّة الإيرانيّة وعلى برامج صواريخها. كما أنّ إنكار أحمدي نجاد للهولوكوست وتهديداته " بمحو إسرائيل عن الخريطة " يمثّلان الإيديولوجيّة المتأصّلة في نفس هذه المجموعة. حيث أنّ أحمدي نجاد قد يكون مؤمناً تماماً- من المراجع الخاصّة بسفر الرؤيا- أنّ بإستطاعته تسريع عودة " الإمام المختفي "، وهو الشخصيّة الشيعيّة المخلّصة البارزة، من خلال العنف والرهن على الحرب. وهناك سابقة تشير الى أنّ الجمهوريّة الإسلاميّة تعمل وفق إيديولوجيتها مدفوعة بمعاداة الساميّة كما في إنكارها حق إسرائيل في الوجود، حيث أنّ الديبلوماسيين الإيرانيين وعملاء المخابرات نسّقا هجوم 1994 المدمّر على المجمع اليهودي في بونيس آيريس في الأرجنتين. وفي العام 2002، وبعد سنتين من إنسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، قال زعيم حزب الله حسن نصر الله للـ Daily Star : " إذا تجمّع اليهود كلّهم في إسرائيل، فإنّ ذلك سيوفر علينا مشقّة ملاحقتهم في العالم أجمع ". ولا تزال الجمهوريّة الإسلاميّة المزوّد الأكبر لحزب الله بالسلاح والمال.

الشعب البراغماتي

إنّ الحقد الإيديولوجي لقادتهم لا وزن له تقريباً بين الشعب الإيراني. فبينما تسببت الحرب العراقيّة- الإيرانيّة بقتل مئات الآلاف من الناس، فإنّ إيران وإسرائيل لم تتبادلا طلقة رصاص واحدة. وقد عبّر عدد من الإيرانيين عن الفخر من أنّ الرئيس الإسرائيلي موشيه كاتساف قد وُلِدَ في إيران. وبالطبع، فإنّ الغضب الحقيقي للإيرانيين العاديين معبَّر عنه تجاه حكوماتهم وليس في الخارج، ففي تظاهرة العمال عام 2002، قام المتظاهرون في طهران بالمطالبة بدفع أجورهم صارخين " أنسوا الفلسطينيين وفكّروا بنا ".

إنّ الشباب الإيراني لا يريد أن يحيا بعد الآن في ظل حكومة دينيّة، كما الشباب الأميركي أو الأوروبي. وتعرض المؤسسة الإيرانيّة للديمقراطيّة (Iran Institute For Democracy)، والتي قامت بإستطلاعات عبر الهاتف لأجل أخذ عيّنة من الآراء، الى أنّ 10 بالمئة فقط من السكان يؤمنون برؤية أحمدي نجاد وهؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون المماثلون للستالينيين المقاومين بعناد والذين عارضوا الإصلاح حتّى النهاية. وهناك 10 بالمئة آخرين يرون أنفسهم كإصلاحيين، هؤلاء هم الإيرانيون المساوين لأتباع ميخائيل غورباتشوف، فهم يدعمون النظام لكنّهم يريدون تثبين وسائلها. أمّا الـ 80 بالمئة الباقين، فهم الذين فقدوا الإيمان بالجمهوريّة الإسلاميّة. إنّ هذه الأكثريّة الساحقة مشابهة لتلك في الإتحاد السوفياتي الذين لم يريدوا glosnost فحسب وإنما سعوا لإنهاء الحكم الشيوعي. إلاّ أنّ الشعب الإيراني لا يقول الكثير حول قيادته. فالقائد الأعلى يسيطر على سلطة الحكومة الدينيّة كما يسيطر على مدّة الحكم وذلك لمدى الحياة. ويختار مجلس صيانة الدستور من يكون قادراً على إدارة الدولة. وقبل إنتخابات عام 2005، أعلن هذا المجلس المؤلّف

من رجال الدين عدم أهليّة أكثر من 1000 مرشّح ثمّ سمحوا للشعب أن يختار من بين ثمانية مرشّحين فقط، وهؤلاء كانوا من الذين أيّدوا حكومة دينيّة وعارضوا إصلاحات كبيرة.

ويتجاهل الإيرانيون العاديون الخدعة، وبينما تدّعي الحكومة الإيرانيّة أنّ 50 بالمئة لبّوا النداء، فإنّ المهاجرين الإيرانيين في العراق يقولون أنّ المقترعين كانوا أقل من 20 بالمئة. وذلك بعكس الإنتخابات في العراق حيث تحمّل 70 بالمئة من الأهالي بشجاعة وتحدّوا القنابل والرصاص ليصوّتوا.

وتدرك القيادة الدينيّة الإيرانيّة أنّ الديمغرافيّة ليست في صالحهم، وأنّ الإصلاح إنّما هو منحدر زلق وما الديمقراطيّة إلاّ شراب الثيوقراطي (الحاكم الديني) السام. وبالنسبة لرجال الدين، لا يمكن أن يكون هناك ثورة ورديّة أو برتقاليّة أو ثورة الأرز. فلا علاقة لإرادة الشعب بالموضوع، إذ أنّ الشرعيّة لا تأتي من الشعب وإنما من الله وتمر بقناة من خلال عصبة سريّة من القادة الدينيين. وبينما يقوم المحللون الغربيون بتقسيم السياسيين الإيرانيين الى متشددين وإصلاحيين، فإنّ الإختلاف إنّما في النموذج الواحد وليس بالمعتقد. خذوا مثلاً السيد خاتمي: يُنظَر إليه كإصلاحي من قِبَل الديبلوماسيين، ومع ذلك فقد إزدرى السيادة الشعبيّة، " إنّ المعرفة هي بأنّ وصية الله يجب أن تكون القاعدة..للحياة "، كما كتب في صحيفة الدولة اليوميّة " كيهان "، " إنّ الشعب لا يمكنه أن يدرك ويفهم إرادة الله من خلال الشروحات الموجودة في القرآن والسنّة. إنّ فهم كهذا يتطلّب سنوات عدّة من الدراسة والكثير من الجهد ". إذن، إنّ الديمقراطيّة حسنة، لكن رجال الدين فقط هم من يجب أن يكونوا قادرين على المشاركة في الحكم بشكل كامل. وقد دعا خليفة الخميني والقائد الأعلى للثورة الإسلاميّة، الديمقراطيّة الحرة بأنها " مصدر كل عذابات البشر ".

إنّ تصريحات كهذه إنما تطوّق الفراغ في أوساط الناس. وتسجّل هذه السنة الإحتفال بالذكرى المئويّة للثورة الدستوريّة لإيران، ويتساءل العديد من الناس عن عدم حصولهم على حقوق كانت لديهم قبل قرن مضى. ومنذ ظاهرة الطلاب عام 1999، الذين أخذوا الى الشارع، بتواتر متزايد، طلبهم بإصلاح حقيقي، بدأ الإيرانيون يتخلصون من خوفهم من السلطات الإسلاميّة. إنّ سلطة الدولة تتآكل، حيث أنّ مهمّة محددة لشخص ما في سجن Evin السيء الذكر أصبحت شارة شرف. ففي صيف 2005، صدم المؤلّف والمنسّق أكبر غانجي (Akbar Ganji) الجمهوريّة الإسلاميّة بإضرابه عن الطعام مدّة شهرين مما فتن مواطنيه، " لقد أصبحت رمزاً للعدالة في وجه الطغيان "، كما كتب من سجنه، " إنّ جسدي النحيل يكشف تناقض الحكومة التي قامت بقلب معايير العدالة والطغيان ". وإنّ الحرس الجمهوري (الإيديولوجيين) بإمكانهم أن يقمعوا الحريق الهائل للمعارضة، إلاّ أنّ الإيرانيين يظلون أشخاصاً سريعي الغضب.

إنّ الديمغرافيّة تصب الزيت على النار، وتتبع القيادة نموذجاً مختلفاً للصين، حيث أنّ آيات الله بإمكانهم إطلاق الثورة الثقافيّة فقط مع رادع نووي الذي سيضمن إستمراريتهم من دون الخوف من تدخل خارجي. ويحضّر الحرس الثوري ليس لساحة Tianaman واحدة، وإنّما لعشر منها. وبينما يقومون بتطهير جبهتهم الوطنيّة، فإنّ الثيوقراطيين قد يستخدمون قدرتهم النوويّة للعمل على الحاجة الإيديولوجيّة، وهي تدمير إسرائيل. لقد تجاهل الغرب مرّة تهديدات صدام حسين ضد الكويت، إلاّ أنّ الديكتاتوريين غالباً ما يعنون ما يقولون. وحتّى ولو لم تستعمل إيران قنبلتها، فإنّ الرادع النووي سيجعلها قادرة على الإندفاع فجأة وبعنف ودون خوف من العواقب. ومع الإيديولوجيّة التي تقول بتصدير ونشر الثورة وبتدمير دولة إقليميّة، فإنّ إيران ليست سلطة ذات وضع شرعي.

أمّا الديبلوماسيّة، فيمكنها أن تعمل فقط إذا كان كلا الجانبين مخلصين، وكما الزوجة المظلومة، يلوم صناع السياسية أنفسهم بدلاً من أن يفهموا أنّ الذنب ليس ذنبهم. ليس هناك من تركيبة سحريّة حتى يتم إكتشافها. وبالنسبة لطهران، فإنّ الغرب ساذج، حيث أنّ العمل بالطرق الديبلوماسيّة سيقوم بإعطاء الوقت للجمهوريّة الإسلاميّة لإنجاز هدفها النوويّ. إنّ الحلول التي يمكنها فقط معالجة المشكلة هي تلك التي تنكر على الجمهوريّة الإسلاميّة صناعتها النوويّة، أو تلك التي تجعل الإيرانيين قادرين على أن يطرحوا جانباً الحكومة الدينيّة وإيديولوجيتها العدوانيّة وأن يعتنقوا الحرية بديلاً عن ذلك.

فشل التعاطي

إنّ التحدّث بنعومة وإستخدام الجزرة الكبيرة، أعطيا عكس النتائج المرجوّة. لقد إستغلّ المسؤولون الإيرانيون الإنفتاح الأوروبي لأهداف ثوريّة أبعد. ففي 17 حزيران 2002، مثلاً، وافق وزراء الخارجيّة الأوروبيين على تسريع المسار لمعاهدة تجاريّة جديدة مع إيران. وقد حاول مسؤولي الإتحاد الأوروبي، كمفوّض العلاقات الخارجيّة Chris Patten ، بصعوبة، كسب التأييد لمشروع القانون لتلك الإتفاقيّة، وكان يجادل بقوله " هناك الكثير ليُقال لأجل المحاولة بإشراك وجر هذه المجتمعات الى مجتمع دولي بدلاً من القطيعة معهم ". وبعد أقل من أسبوع، أوقفت وكالة Police Surveillance Agency الدانمركيّة، عملاء إيرانيين يسعون لإغتيال منشقّين بارزين وصحافيين إيرانيين. كما أنّ رئيس المفوضيّة

الأوروبية السابق Romano Podri أمضى ولايته وهو يسعى لدعم الروابط الإقتصاديّة مع إيران، وكسرت زيارته في تموز 1998 المحرّم الذي طال أمده، وكافأت إيران شركة النفط الوطنيّة الإيطالية بإتفاقيّة لإستغلال الغاز بقيمة 3.8 مليار دولار.

إنّ تآكل الضغط الأوروبي على إيران تزامن ليس مع حرارة وإنّما مع مع توقف حركة الإصلاح. وفي شهر تموز التالي، قامت قوات الأمن الإيرانيّة بسلب مبنى مؤلّف من غرف نوم للطلاب الداخليين في جامعة طهران. وبدأت الحكومة تغلق الصحف وتعتقل الصحافيين، وقلبت بشكل معكوس الحريات المدنيّة، وقامت الحكومات الأوروبيّة بتأديب الحكومة الإيرانيّة بلطف؛ لأنّ القيام بعمل ما مهم يمكن أن يعرّض العقود التجاريّة للخطر. وقامت هرميّة السلطة في الجمهوريّة الإسلاميّة بدورها برفض التوسلات الأوروبيّة وإستمرّت بخطتها المعادية للديمقراطيّة.

وكانت مفاوضات السنتين الماضيتين بين طهران والإتحاد الأوروبي (EU-3) نموذجاً مشابهاً لما سبق. وأظهر الديبلوماسيون الأوروبيون الإحباط. إذ أنّهم يفترضون الإخلاص عند شركائهم ويكافحون بثبات لإيجاد التركيبة السحرية التي ستجعل آيات الله يتخلون عن مستقبلهم النووي.

وعندما أكّد وزير الخارجيّة البريطاني جاك سترو للشعب البريطاني والحكومة الإيرانيّة أنّه لن يتم إستعمال القوّة تحت اي ظرف في المأزق الحالي، فإنّه شجّع أعداءه الإيرانيين على إعاقة المشروع. وتربط الحكومة الإيرانيّة في هذه الأثناء عدم الإذعان مع المكافأة، ولأنّ الحكومة الإيرانيّة لا تحمل الحلحلة الغربيّة على محمل الجد، فإنّ لديها العزم ليس فقط لضرب أي إتفاق وإنّما حتّى للصمود والتحمّل لأجل إمتياز أكبر.

الحرية المتقدّمة

عندما بدأ الرئيس بوش دورته الثانية، ألقى خطاباً توليه الرئاسة جاعلاً من الحرية الواسطة لسياسته الخارجيّة، " إذا إستمرّت مناطق بكاملها من العالم تجيش بالغيظ والطغيان... فإنّ العنف سوف يتجمّع ويتضاعف بقوّة مدمّرة ليعبر أغلب الحدود المُصانَة وينشر تهديداً قاتلاً "، صرّح الرئيس قائلاً " إنّها سياسة الولايات المتّحدة بالعمل على السعي وعلى دعم نمو الحركات والمؤسسات الديمقراطيّة في كل دولة وكل ثقافة ".

وما يعطي التفويض بتحييد إيديولوجيّة الجمهوريّة الإسلاميّة ليس العدالة فقط، وإنما الأمن القومي أيضاً. إنّ الخيار العسكري له كلفة عالية، كما أنّ الإيرانيين هم شعب قومي بشكل مخيف، وسوف يستاؤون من أيّة ضربة جويّة. ويستغل النظام الإسلامي القوميّة الإيرانيّة، حيث تصوِّر الجداريات في طهران أولئك الذين قُتِلوا في العام 1987، عندما هاجمت القوات الأميركيّة منصّة بحريّة في الخليج الفارسي في عمليّة ثأر بسبب الهجوم الإيراني على حاملة نفط تحمل العلم الأميركي.

ولا يزال يوجد الكثير للقيام به بين العقوبات الرمزيّة والقوّة العسكريّة، والمشكلة هي أنّ إيران ليس الشعب الإيراني، وإنّما هي الإيديولوجيّة والإمساك بالسلطة من قِبَل قلّة من النخبة. ولم تقم إدارة بوش بالكثير لتجعل عمليّة التحرر أو الحريات تتقدّم في إيران. وبينما كانت وزارة الخارجيّة تقوم بمناقشة كيفيّة صرف ثلاثة مليون دولار على مجموعات تدفع بإتجاه تحسُّن الحريات في إيران، قام الكونغرس بتمويل 400 مليون دولار لبناء جسر في ألاسكا. كما أنّ هناك المزيد من الأموال لصرفها على المنظر الطبيعي للأرض المحيطة بـ Kenedy Center في واشنطن بدلاً من برامج لدعم الشعب الإيراني.

إنّ دعم مبدأ الحريّة في إيران ليس بحاجة الى وسيلة تجيير مجموعة معارضة خارجيّة، إنّ الإيرانيين قادرون على حكم أنفسهم، حيث أنّ البيروقراطيين هم من بين الأوائل الذين يتذمرون من نزوات الحكومة، وليس على المسؤولين الأميركيين إقتطاع جزء من وحدة الأمّة الإيرانيّة عن طريق تمويل المجموعات الإنفصاليّة. إنّ زعزعة إيران بالوضع الذي هي فيه الآن يملك الإحتمال بإرساء الديمقراطيّة في الشرق الأوسط. ولا يجب أن يأتي المكسب على المدى القصير على حساب التضحية بحليف على المدى الطويل.

إنّ نموذج Gdansk قد يجد له أرضاً خصبة في إيران. فمنذ ربع قرن مضى، وقف البيت الأبيض بثبات في دعمه الإتحاد العمالي المستقل برغم النداءات من أنّ هكذا دعم قد يخرج عن السكة الإنفراج في العلاقات الدوليّة المنفعلة في الإتحاد السوفياتي، وبينما أشعلت هذه الحركة إجراءات عسكريّة صارمة على المدى القصير، فإنّها مع ذلك إفتتحت في بولندا وحلف وارسو عمليّة أدّت الى إنهيار الطغيان. ولا يجب أن تتردد الولايات المتّحدة ولا الإتحاد الأوروبي بتقديم الدعم للشعب الإيراني. لقد لعبت الدول الأوروبيّة دوراً أساسياً في تسهيل دمقرطة أوكرانيا وجورجيا بشكل حقيقي، كما إستفاد لبنان من التعاون ما بين باريس وواشنطن.

إنّ المشاكل السياسيّة يمكن حلّها من خلال الديبلوماسيّة، إلاّ أنّ السس الإيديولوجيّة الداعمة للنظام المعادي لا يمكن أن تُحل. لم يستطع جمال عبد الناصر أن يتخلّى ابداً عن القوميّة العربيّة. كما أنّ صدام حسين يؤيّد، وبتحدّ، مبادئ حكمه، حتّى وهو يواجه المحكمة وحكم الإعدام. ولا تختلف القيادة الإيرانيّة بذلك عنهم. وليس هناك من مقدار ديبلوماسي يمكن أن يقنع قيادة رجال الدين الإيرانيين بالتخلي عن معتقداتهم وسياساتهم الذين يرونها متجذرة في تفسيرهم الخاص لنظامهم الديني.

من المهم تأسيس السياسات على ما هي إيران وليس على ما يرغب الغرب أن تكون عليه. وفي نفس الوقت، فإنّ على الولايات المتّحدة وأوروبا أن يعملا معاً لتمكين الشعب الإيراني من خلق حكومة ممثلة بشكل صحيح. إنّ حكومة إيرانيّة تعكس إرادة ومعتقدات الشعب الإيراني لن تكون من يعرّض الحريات في الوطن أو الحياة والأمن في الخارج للخطر.

Research Services Group
ResearchServics.Group@gmail.com